أمة تأتلف

الدكتور
فيصل عبد الله العوامي

أُمَّةٌ تَأْتَلِف

أُمَّةٌ تَأْتَلِف

د. فيصل عبدالله العوامي

الناشر
قطف للتعارف الفكري

الموقع الإلكتروني www. qatf. org
البريد الإلكتروني info@qatf. org

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلما حَلَكَ الظلام كان علينا أن نشعل شمعة لنبعث الأمل في نفوسنا راجين الخير والمستقبل المشرق.

هذا ما يحفِّزنا لتقديم هذه الأطروحة في زمن تتراكم فيه الصور السلبية ويستشري فيه الاحباط.

لازلنا نتطلع لمستقبل إنساني أفضل تكون صورته أمةً مؤتلفة.

فيصل عبد اللَّه العوامي

القطيف

الجمعة ١٢ - ٥ -

١٤٤٠هـ

مدخل للبحث

لماذا نؤكد على مفهوم الائتلاف؟

برز في القرن العشرين وما بعده، ولاسيما في العقود الخمسة الأخيرة عناوين كثيرة تدور حول محور واحد يتعلق بالصورة العامة للمجتمع الاسلامي، كعنوان الأخوة الاسلامية، والوحدة الاسلامية، والتقريب بين المذاهب، والتعايش الاجتماعي. وقد تبنى هذه العناوين كأطروحات عملية وحلول لمشاكل مستعصية في الوسط الاسلامي الكثير من المفكرين والعلماء، وكانت هذه الأطروحات تسير في خط بياني، تارة تجد لها مساحة واسعة من التأييد والمناصرة، وتارة تضيق مساحتها تبعًا للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، ولعل هذه المساحة تكون في هذه اللحظة الراهنة في أضيق حالاتها.

هنا يأتي السؤال: لماذا نتحدث عن هذه الأطروحة في

هذه الفترة بصفتها مشروعًا اجتماعيًا وفكريًا وعلميًا؟.

إنما يزداد التأكيد على هذه الأطروحة بما لها من خصوصيات لسببين أساسين:

١. لأن الظروف الموضوعية الراهنة السياسية منها والاجتماعية والفكرية تضطرنا لفتح هذا الباب، نظرًا لأن صورة التشرذم والصراع هي الحاكمة في جميع هذه الصُّعُد.

٢. لتعالي النداءات في الساحة الاسلامية على المستوى الاجتماعي العام والمستوى العلمي الخاص الداعية إلى إيجاد صيغة عملية تقودنا إلى نبذ الصراع والمضي في طريق الايجابية والبناء. في الوقت الذي توجد فيه أيضًا نداءات تشاؤمية ترى بأن هذه الأطروحات مثالية غير قابلة للنجاح لعدم توفر الشروط الموضوعية في الساحة الاسلامية، وتستند هذه النداءات التشاؤمية إلى الاخفاقات التي منيت بها مثل هذه الأطروحات في السنوات الخمسين الأخيرة، إذ إنها زرعت حالة من الإحباط على المستوى الاسلامي اجتماعيًّا وعلميًّا.

لهذين السببين فَرَضَتْ هذه الأطروحةُ نفسها في هذه الفترة

الزمنية بالذات، وسيكون تناولها في مجموعة من الفصول.

وينبغي التنبيه هنا بأن هذه الأطروحة ليست متحيِّزة إنسانيًا، من خلال التأكيد على الأفق الاسلامي فقط، بل المشروع الأكمل هو (ألفة الانسانية) بشتى انتماءاتها، ولكننا هنا نسلط الضوء على جزء خاص من الاشكالية الأكبر باعتبار أن معالجة الجزء سيساهم في معالجة الكل، ولأنها محل الابتلاء فعلًا، والأقرب لقدرتنا المتاحة وحدود إمكانياتنا، وغير ذلك من الأسباب.

الفصل الأول

تقرير مفهوم الائتلاف

تقرير مفهوم الائتلاف

لماذا عنوان «**أمة تأتلف**» وما هي خصوصياته؟

جرى عنونة هذه الأطروحة بـ«**أمة تأتلف**» لتناسبها مع المنطوق القرآني، ولأنها المشروع الذي عالج به النبي الأكرم ﷺ الأزمات التي كانت متجذرة في المجتمع العربي.

وقد طرح القرآن الكريم هذا العنوان بمنهج التضاد، وذلك لإعطائه مزيدًا من الوضوح البيان، نظرًا لأن العناوين والمفاهيم تُعرَف بأضدادها.

لاحِظْ الفقرتين في الآية المباركة ١٠٣ من سورة آل عمران:

الأولى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

الثانية: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

فالألفة في الفقرة الثانية ﴿**فَأَلَّفَ**﴾ تُقَابِل وتُضَاد الافتراق في الفقرة الأولى ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾، ولهذا فإن معاجم اللغة عندما تستعرض مرادفات الافتراق تذكر على وجه الخصوص الإنفصال، وعندما تستعرض الأضداد تذكر الاجتماع والتآلف.

فالآية المباركة كي تبين لنا بوضوح مفهوم الائتلاف أشارت إلى ضده وهو الافتراق، وذلك لتؤكد للقاريء بأن الألفة المعنية في الآية هي التي لا افتراق فيها أبدًا، وهذا يضعنا على المستوى الرفيع للمشروع السياسي والاجتماعي الداخلي في زمن النبي الأكرم ﷺ.

فعندما تقول الآية ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ تبين لنا بعد ذلك الكيفية التي لا يحصل فيها الإفتراق، وهي ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾، وهذه الطريقة من الاستعمال تفيد بأن الألفة ينعدم فيها أي شكل من أشكال الافتراق، والتعدد في وجهات النظر الذي لا يمكن عقلًا وواقعًا انتفاؤه ليس من صور الافتراق، إذ إن هناك فرقًا واضحًا بين الإفتراق والتعدد، ولذلك فإن القرآن الكريم الذي نهى عن الإفتراق هو نفسه دعى للتعدد في قوله سبحانه في الآية ٨٤ من سورة الإسراء ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا**﴾.

فالائتلاف يعني انتفاء كل الصور التي يتجلى فيها

الإفتراق، وهو الشعار الذي أكد عليه نبي اللَّه هارون عليه السلام ليجيب على ما ظاهره الاستنكار من قبل نبي اللَّه موسى عليه السلام، واكتفى به موسى عليه السلام ورضي، فقد قال اللَّه تعالى على لسان نبي اللَّه موسى عليه السلام في الآيتين ٩٢-٩٣ من سورة طه: ﴿**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**﴾، وذلك يظهر منه شيء من الاستنكار والعتب، لكن كل ذلك ارتفع بمجرد أن أجاب هارون عليه السلام بما في الآية ٩٤: ﴿**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾.

بمعنى أن بقاء هارون عليه السلام مع بني إسرائيل بالرغم من عصيانهم إنما كان للحؤول دون حصول أي شكل من أشكال الافتراق، أي أن فلسفة البقاء المحافظة على الألفة في بني إسرائيل، وهو مشروع يستحق التوجه والعناية بل والتضحية أيضًا بكثير من المصالح المتصوَّرة. ولهذا بمجرد أن استمع موسى عليه السلام لهذا الجواب أوقف عتبه وتوجه لمخاطبة السامري.

بناء على هذا فأطروحة (**أمة تأتلف**) التي ننادي بها بصفتها مشروعًا اجتماعيًّا وفكريًّا بل وعلميًا تؤسس للائتلاف الذي تنعدم فيه كل صور الافتراق. هذا تصوير أولى للفكرة وسنأتي على مزيد بيان في الفصول القادمة.

بين الائتلاف والتعدد

إن نفي الافتراق بجميع صوره عند تقرير مفهوم الائتلاف لا يعني بأي حال من الأحوال التحجر الفكري ونفي التعدد والتنوّع في المجتمع الواحد، فالافتراق والتعدد مفهومان متباينان، ولا أقل بينهما عموم وخصوص من وجه، فحتى لو التقيا في بعض الصور لأسباب موضوعية-كما لو طرأت الفُرْقَة على مجتمع متعدد فكريًّا وساهمت في تحويل تعدده إلى احتراب-، فإنهما يفترقان في أغلب الصور، فقد يكون هناك مجتمع تشيع فيه الفُرْقَة بالرغم من أنه غير متعدد فكريًا، وهذه حالة سلبية أخرى، وقد يكون هناك مجتمع متعدد لا افتراق فيه أبدًا، وهذه هي الحالة الايجابية المنشودة، وهذا ما نعنيه من أن التعدد لا يلزم منه الافتراق، وأن الائتلاف لا يلزم منه نفي التعدد مهما كان مستواه.

ويمكن هنا استحضار المثال السابق، فقوم موسى عليه السلام لما عبدوا العجل حصل في وسطهم تعدد وتنوّع في مسائل الاعتقاد، فسبعون ألفًا منهم سجدوا للعجل[1]، والأكثر صاروا يتفرجون وهم قرابة خمسمائة وثلاثين ألفًا، لأن مجموع بني

(١) تفسير نور الثقلين، الحويزي، ج٤ ص٤٢٧، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، الطبعة الاولى ١٤٢٢هـ.

إسرائيل الذين تجاوزوا البحر مع نبي اللَّه موسى عليه السلام ستمائة ألف مقاتل[١]، وقلة منهم بقوا على إيمانهم بالله عز وجل وأظهروا رفضهم لعبادة العجل وانحازوا إلى صف هارون عليه السلام كأبنائه ويوشع بن نون وكالب بن يافنا، لهذا فالتعدد الحاصل عندهم لم يكن في أمور سطحية بل في أمور الاعتقاد، ومع ذلك بقي هارون عليه السلام بينهم حتى لا ينزلقوا نحو الفرقة، أي كي لا يتحول التعدد إلى عامل من عوامل الافتراق، وهذا يفصح عن أن الائتلاف يمكن تحققه حتى في المجتمع المتعدد، فالتعدد ليس نقيضًا للائتلاف، وإنما الافتراق نقيض له.

كما يمكن التنظير لذلك بالكثير من الدول المعاصرة، كالهند التي تُعَد من أجلى مصاديق الدول التي يتجلى فيها عنوان التعدد، فدياناتها الرئيسية والفرعية تبلغ ١٨٠[٢]، وقومياتها تتجاوز الألفين[٣]، وهي موطن لما يقارب ٤٦١ لغة وقد انقرض منها فقط ١٤ لغة[٤]، وكماليزيا المتعدِّدة الديانات فـ ٦٠٪ منها مسلمون، و ٢٠٪ بوذيون، و ٩٪ مسيحيون، وحوالي

(١) مجمع البيان، الطبرسي، ج٣ ص٢٢٤، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الأولى.
(٢) موقع (موضوع) الإلكتروني.
(٣) ويكبيديا الإنجليزي.
(٤) موقع (موضوع) الإلكتروني.

٦٪ هندوس، بالاضافة للسيخ والديانات الصينية[١]، والمتعدِّدة الأعراق ففيها المالاويون والصينيون والهنود[٢]، ومع ذلك فكلا الدولتين تعيشان ألفة اجتماعية واستقرارًا سياسيًّا.

فالتنوّع في التركيبة الاجتماعية والتعدد في القناعات الفكرية، وأيضًا الاختلاف في تقويم الأمور واتخاذ المواقف لا يتنافى مع الائتلاف، فمهما بلغ التنوع والتعدد والاختلاف فإن المجتمع قادر على المحافظة على صورة الائتلاف في داخله، بل التعدد في حقيقته محرِّك لعجلة التكامل في المجتمع، ولهذا فالقرآن الكريم الذي دعا للائتلاف لم يرفض التعدد بل نصَّ على أن التعدد والتنوّع مُرادٌ إلهيًا، أي أن اللَّه سبحانه هو الذي بنى المجتمعات متعددة كي تسير في خط التكامل بنحو مستمر، كما في قوله سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[٣]، نظرًا لأن التعارف بطبيعته يولِّد التكامل سواء كان شعوريًّا أو لا شعوريًّا. فالتعدد يسير في خط واحد مع الائتلاف، وما يتنافى مع الأخير إنما هو الافتراق. نعم قد يصبح التعدد عاملًا مولِّدًا للفُرْقَة إذا لم يُسيطَر عليه ويُنظَّم بشكل صحيح.

(١) المصدر نفسه.
(٢) موقع (ماليزيا عرب) الإلكتروني.
(٣) الحجرات ١٣.

بهذا يتضح أمامنا بأن مفهوم الائتلاف يتقوَّم بأمرين:

١. وجود الرضا والقبول النفسي بين أفراد المجتمع وإن تعددوا اجتماعيًّا وثقافيًّا، بالمستوى الذي يؤدي إلى تجنّب حالات ومظاهر النفور النفسي.

٢. المحافظة على التواصل الاجتماعي بين سائر أفراد وفئات المجتمع وإن تعددوا اجتماعيًّا وثقافيًّا.

وهذان الأمران بطبيعتهما وبشكل أوتوماتيكي يمهدّان للتعاون في بناء المجتمع وتنميته، كما يساهمان في توحيد الأهداف، ويقللان من حالات الاحتراب والتنافس اللاشريف.

فلكي يتحقق مفهوم الائتلاف لابد من النجاح في كسر الحواجز النفسية والتقليل من نِسَب النفور النفسي، أي لابد من خلق استعداد نفسي للتعايش وقبول نفسي بمظاهر التعدد لدى جميع أبناء المجتمع، ولابد أن يُدَعَّم هذا بالتداخل الفعلي والتواصل المستمر على أعلى المستويات، لأنه ضمانة هامة لنجاح مشروع الائتلاف، إذ لو حصل شيء من النفور النفسي مع مرور الزمن لأي سبب فإنه يتراجع تلقائيًّا لصالح هذا المشروع بسبب المحافظة الدائمة على التواصل بين جميع الأفراد والفئات.

الفصل الثاني

الأسباب الموضوعية

الأسباب الموضوعية

لماذا ننادي بهذه الأطروحة وهذا المشروع في هذه اللحظة الزمنية؟

ما الذي يدفعنا للقول بأن مجتمعاتنا في هذه اللحظة الزمنية بالذات في حاجة ماسة لانتقالة تصبح من خلالها أمةً متآلفة بالمعنى العلمي لمفهوم الألفة الذي تم تحريره في الفصل السابق.

١. أولًا وقبل كل شيء لأن نقيض هذه الأطروحة مشكلة كبرى في حد ذاته، من غير أن نكون في حاجة للتدليل على واقعية أو خطورة هذه المشكلة، فالفرقة والتمزّق آفة خطيرة يمكن تشخيصها بالوجدان. وقد أشارت بعض الآيات المباركة إلى هذا المعنى، كما في قوله سبحانه ﴿**إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾، فالخشية التي عبَّر عنها

هارون عليه السلام لا تحصل إلا بسبب مشكلة متوقَّعة، كخشية الانسان من المرض أو الفقر وشبههما، وبناء عليه فلو حصلت الفرقة في بين إسرائيل لدلَّ ذلك على وجود مشكلة ما. وهكذا قوله عز وجل ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾، فالنهي عن إحداث الفرقة يُنبيء عن كونها مشكلة اجتماعية مستعصية، ولهذا أصبح تحقيق الألفة مِنَّةً تستوجب الشكر.

وهذه المشكلة يمكن ملاحظتها بسهولة على المستوى الاجتماعي والفكري بل والعلمي. وبهذه المناسبة ينبغي التأكيد بأن هذه الأطروحة ليست مقتصرة على البعد الاجتماعي بالمعنى الأخص، وإنما تلحظ أيضًا انعكاسات مشكلة الفرقة على المجالين الفكري والعلمي، وبالتالي الآثار الايجابية للائتلاف في هذه المجالات جميعها.

وكل ذلك يمكن ملاحظته وجدانًا ولو من خلال إطلالة سريعة على التاريخ أو العالم من حولنا، فالافتراق والتمزق الذي تبتلي به بعض المجتمعات

المعاصرة أرانا عيانًا فداحة هذه المشكلة، لما ولَّده من عُقَد في الحياة الاجتماعية والسياسية، وما سببه من تأخر مدني وحضاري وضياع الأهداف التنموية وفقدان العناصر الإيجابية كالطاقات الشابة والإنتاج العلمي وما إلى ذلك. إن جميع العقلاء يدركون حجم هذه المشكلة ولو لم يكونوا من المتعلمين، خصوصًا إذا كانوا من المجتمعات التي ابتُلِيَتْ بمثل هذه المشكلة ولو لمدة زمنية قصيرة.

٢. الفُرقة كانت ومازالت عاملًا أساسًا في تعثّر أو تعطُّل حركة التكامل في المجتمعات المصابة بهذا الداء، لأن هذه المجتمعات تنشغل عن المهمات بتوافه الأمور، وتلتهي عن العمل على إحداث قفزات تنموية بالأفكار والاهتمامات السطحية، وبدلًا من التركيز على البناء والتنمية تعلم على هدم جميع البنى التحتية للمجمتع، وهو أمر ملاحظ وجدانًا أيضًا في الواقع الخارجي بلا حاجة لمزيد عناية للتدليل عليه.

إن تصاعد حركة التكامل في أي مجتمع إنساني مرهون بتراجع وتيرة هذه المشكلة، كما أن فشل أي مجتمع وتوقف حركته التنموية مرهون أيضًا بتصاعد

تلك الوتيرة. ولا أدل على ذلك مما لمسناه فعلًا على مستوى بعض مجتمعاتنا المعاصرة، حيث كان بعضها يومًا مغذِّيًا علميًّا لكثير من المجتمعات من خلال انتاجها العلمي الرائد، لكنها وبمجرد أن تولدت فيها هذه المشكلة وانعطفتْ نحو الاحتراب عقمت عن توليد العلوم والمعارف ونضب عطاؤها الفكري.

٣. تحقيق الأهداف السامية لأي مجتمع رهين بتجاوز مشكلة الفرقة والتمزق وتجذير روح الائتلاف، والعكس صحيح إذ يمكن اختراق أي مجتمع وحرف أهدافه أو تعطيلها بإحداث مثل هذه المشكلة، كما قد حصل كل ذلك فعلًا في أزمنة مضت ليس على المستوى الاسلامي أو الديني فحسب، وإنما على المستوى الإنساني أيضًا.

إن أي هدف تحمله أمة أو مجتمع لا يمكن تحققه واقعًا إلا بعد توفر عنصر الاستقرار الاجتماعي، وبوسعنا التدليل على ذلك بملاحظة العائلة الصغيرة أي الأسرة، وهي نموذج مصغَّر للعائلة الكبيرة وهي المجتمع أو العائلة الأكبر وهي الأمة، فالأسرة لا تستطيع تحقيق أهدافها وإنجاح أفرادها إذا فقدت

عنصر الاستقرار، ولهذا نَصَّ القرآن الكريم على أن الهدف الأسمى للبيت الزوجي الاستقرار، كما في قوله سبحانه ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾[1]، والسكن هو الاستقرار والتآلف النفسي والعملي داخل البيت الواحد. ولواقعية هذا الأمر وأهميته نجد أن أغلب المفكرين والمصلحين على المستوى الإسلامي بدءًا من القرن التاسع عشر الميلادي وحتى الآن ركَّزوا على هذه المشكلة واعتبروها المانع الأساس الذي يَحُول دون تحقيق الأهداف العليا للمجتمع الاسلامي، كما اعتبروا أن الطريق الأصح لتحقيق تلك الأهداف يبدأ بتجذير روح الائتلاف.

ومطالعة سريعة لمسيرة الدعوة المحمدية المباركة تدليل لنا على هذه الحقيقة، فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بدأ برنامجه الدعوي بهذه الخطوة الاجتماعية الهامة، حيث عمل عليه السلام على تحقيق الألفة النفسية والعملية داخل المجتمع الاسلامي في المدينة المنورة، وقد نتج عن ذلك انجازات هامة على كثير من الصُّعُد، فعلى

(١) الروم ٢١.

المستوى الاقتصادي كان الأوس والخزرج ضِعافًا، وكانت أراضيهم الصالحة للزراعة مهملة بسبب تفرقهم وانشغالهم بالحروب، ولذلك كانوا تابعين لليهود ومعتمدين عليهم في حاجاتهم المعيشية، بل وفي قضاياهم العلمية ولذلك كانوا يستفتونهم حتى في مثل موضوع النبوة، وهكذا على المستوى الاجتماعي والسياسي إذ لم يكونوا قوة قادرة على تشكيل دولة ومجتمع متماسك[١]، لكن بعد مجيء النبي الأكرم ﷺ قُضِي على الفرقة وحلَّ محلها الألفة كما في نص الآية المباركة ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾، فأصبحوا قوة اقتصادية منافسة لليهود وتحوَّلت أراضيهم إلى بساتين منتجة[٢] بعد أن كانت معطَّلة، وشيئًا فشيئًا تحولوا إلى قوة اجتماعية وسياسية وشكَّلوا دولة متقدمة قادرة على حماية نفسها وتطوير إمكاناتها، كما أصبحوا مع مرور الزمن مرجعًا علميًّا للحضارات القائمة على مستوى العالم.

(١) مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص)، د. عبد اللهَّ عبد العزيز بن إدريس، ص٦٠، جامعة الملك سعود ١٤١٢هـ.
(٢) انظر المصدر نفسه ص٢٠٣-٢٠٨.

هذه الأمور الثلاثة تشكِّل الأسباب الموضوعية التي تدفعنا للمناداة بهذه الأطروحة في هذه الفترة الزمنية بالذات. فمجتمعاتنا الاسلامية في حاجة لتحريك عجلة التكامل المدني والحضاري، والعمل على تحويل أهدافها وتطلعاتها إلى إنجازات واقعية، وذلك لا يتم إلا بتجاوز مشكلة التفرق وتكريس الائتلاف النفسي والعملي.

الفصل الثالث

الخطوات العملية

الخطوات العملية

(أمة تأتلف) أطروحة نظرية وعملية تهدف إلى تقديم علاج للمشكل القائم في الوسط الاسلامي اجتماعيًّا وفكريًّا وعلميًا، والمساهمة في تحريك عجلة التكامل على المستوى الاسلامي ككل، وهو ما سيؤدي إلى تحقيق التطلعات الكبرى لهذه الأمة والأهداف العليا التي رسمها النص القرآني الكريم.

فمن أين تكون البداية في تحقيق هذه الأطروحة وتحويلها إلى واقع حياتي ملموس؟

انطلاق مثل هذا التساؤل يأتي بعد ملاحظة حركة التراجع التي مُنِيَتْ بها جميع الأطروحات المشابهة لهذه الأطروحة والمتناغمة معها، فبلاشك إن جميعها حقق انجازات ونتائج ملموسة في بعض الأزمنة والظروف الايجابية التي مرَّ بها العالم الاسلامي، لكنها سرعان ما تراجعت تبعًا لكثير من العوامل والظروف السلبية والمعاكسة التي شاعت خصوصًا في الخمس

عشر سنة الأخيرة، فأطروحات كالوحدة الاسلامية، والأخوة الاسلامية، والتعايش المجتمعي، والمجتمع المدني، والتقريب بين المذاهب، جميعها تراجعت لصالح الوهج الطائفي. ولعل بعض الباقين من روّاد بعض هذه الأطروحات مازالوا ينادون بها نظريًا، إلا أن الساحة وبشكل عفوي وضعتْ لهم تصنيفات خاصة ضيقة، وربما تصنَّفوا فعلًا.

لذلك يمكن صياغة السؤال أعلاه بشكل أكثر خصوصية: ما هي الخطوات العملية التي يمكن اتباعها لتحريك هذه الأطروحة استفادةً من التجارب السابقة؟ فهذه الصيغة يمكن أن تضعنا أمام خيارات واقعية حققتْ درجة من النجاح يومًا ثم سقطتْ أو تراجعتْ.

قبل التطرق للخطوات ينبغي التصدير بمقدمتين هامتين في هذا الصعيد:

المقدمة الأولى: عدم الانفعال بالأمزجة الاجتماعية العامة. ويتوجَّه الكلام على وجه الخصوص للقائمين على مثل هذه الأطروحات، إذ عليهم أن لا يستجيبوا للأمزجة المتقلبة لبعض أبناء المجتمع، والتي غالبًا ما تميل نحو الانفعال والتعجّل وتجافي الحكمة. فكثير من الأطروحات والمشاريع الناضجة فشلتْ بسبب الاستجابة للأمزجة المنفعلة للشارع العام.

ما المقصود بالأمزجة العامة؟

أي مشروع له آفاق وأبعاد متقدمة يتبناه المصلحون يواجِه عادة ردود أفعال سلبية بمجرد عرضه على الشارع العام خصوصًا إذا جاء في ظل ظروف وبيئات منشِّطة للمواقف السلبية، والأطروحة المتبناة هنا من هذا القبيل، ولذلك فإننا لو عرضنا أطروحة (**أمة تأتلف**) بأي صيغة أو عنوان في ظل مجتمع تزدحم فيه مظاهر الشحن الطائفي، ربما تواجه صدودًا اجتماعيًا، أو تكون الاستجابة لها ضعيفة، بسبب نظرات المقارنة التي يقوم بها المجتمع بين مثل هذه الأطروحة والتجارب السابقة التي لقيت حظها من الانتكاس، وهذا الموقف الاجتماعي في حد ذاته يشكِّل مشكلة كبرى في هذا الصعيد.

وفي هذا السياق لو أننا قرأنا التجارب والأطروحات السابقة التي قادها بعض المصلحين على المستوى السني والشيعي من أواخر القرن التاسع عشر وإلى نهايات القرن العشرين، لوقعنا على مواقف كثيرة يسوقها رواد هذه التجارب حول ردود الأفعال السلبية لبعض الشرائح من مجتمعاتهم، ولاسيما في بعض الأزمنة التي لم تكن تلك المجتمعات مثقفة بثقافة تتناسب مع هذه التجارب، وإنما كانت متشبِّعة بثقافات معاكسة كالثقافة المناطقية أو المذهبية أو العنصرية. ففي مثل

هذه الأجواء المشحونة يكون المزاج الاجتماعي العام غير منسجم مع مثل هذه الأطروحات.

أضف إلى ذلك أن التطلّعات الكبرى التي يهواها بعض المتميزين والتي تولِّد عادة مثل هذه الأطروحات كالتي نحن بصدد تقريرها، لا تجد لها تفاعلًا أو تفهُّمًا على مستوى كثير من الشرائح الاجتماعية التي تكتفي في الأعم الأغلب ببعض التطلعات الجزئية والصغيرة.

بالتالي فلو أنك ألقيت مثل هذه الأطروحات المترجِمة للتطلعات الكبرى لشريحة المتميزين على ساحة اجتماعية غير متطلِّعة وغير مهيَّئة ثقافيًّا لتقبّل هذا النوع من الأطروحات، فإنك لا محالة ستصطدم بأمزجة غير مشجِّعة، ما قد يصيب بعض المصلحين بشيء من الإحباط، بل قد تؤدي في بعض الحالات إلى تبطئة أو توقف الأطروحات والمشاريع.

فكي تأخذ الأطروحات طريقها للتحقق يجب أن لا ينفعل روّادها بالأمزجة العامة، وإنما عليهم من جهة التحمّل، ومن جهة أخرى العمل على تثقيف المجتمع ليكون مهيَّأً للتجاوب مع مثل هذه الأطروحات والتطلعات المتقدمة.

المقدمة الثانية: عدم الانفعال والتأثر بالشواهد والمواقف السلبية المناهضة لهذه الأطروحة، والتي قد تحصل في يوميات

أي مجتمع بشكل طبيعي حينًا بعد آخر، بالذات في الزمن نفسه الذي تُطبَّق فيه الأطروحة.

بعض أبناء المجتمع قد يستجيبون للإثارات والأحداث الجانبية، وربما تشتغلهم عن قضاياهم الأم، أو تصرف تفكيرهم عنها، وعادة ما يتمسكون ويستشهدوون بها لتبرير عدم تفاعلهم مع الأطروحات الايجابية. فمثلًا عند المناداة بمشروع هذه الأطروحة **(أمة تأتلف)** أو شبيهاتها، قد يُحجِم البعض عن التفاعل معها ودعمها والاستجابة لأفكارها بسبب حدث سلبي طاريء، وفي بعض الأحيان قد تتسبب الاستجابة للأحداث والإثارات الطارئة في تعطيل المشاريع الكبرى وإفشالها. ولذلك يجب على القيادات الإغماض عن الأحداث الجزئية الطارئة وعدم التعويل عليها وتركيز الاهتمام على الاستراتيجيات كي لا تتشوّه مسيرتهم الايجابية.

وطالما حصل ذلك فعلًا أثناء المسيرة الدعوية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عليه السلام يحذِّر المسلمين من الإنجرار وراء تلك الإثارات، ففي صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد اللَّه قال: كنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال الانصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذاك رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما بال دعوى جاهلية. قالوا: يا رسول اللَّه كسع رجل من

المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال ﷺ: دعوها فإنها منتنة[١].

كما جاء في بعض كتب التفسير أن شاس بن قيس وكان شيخًا من اليهود مرّ ذات يوم على نفر من أصحاب الرسول ﷺ من الأوس والخزرج فرآهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة، فقال: قد اجتمع بنو قيلة والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر فتى شابًا من اليهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث، أي الحرب التي كانت بينهم وما كان فيهم وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك وذكر كلٌّ أقوال شاعرهم وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة، فنادى هؤلاء: يا آل الأوس، ونادى هؤلاء: يا آل الخزرج، ثم خرجوا للحرب وقد أخذوا السلاح واصطفوا للقتال. فلما بلغ الخبر رسول ﷺ، خرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وقال: يا معاشر المسلمين اللَّه اللَّه اتقوا اللَّه. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللَّه إلى الاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟ فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول اللَّه ﷺ

(١) صحيح البخاري، ص١٠٢٥، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

سامعين مطيعين[١].

فهذان الحدثان يبيِّنان كيف أن المجتمع يمكن أن يستجيب بسهولة وبنحو عاطفي للأحداث والإثارات الطارئة ويتخذ مواقف مناهضة لمشاريعه التنموية النوعية، وربما تسبب ذلك في الإضرار بتلك المشاريع أو إفشالها، لكن القيادات ينبغي أن يكونوا حذرين من التجاوب مع مثل هذه المواقف العاطفية، ويحذِّروا المجتمع من الإنفعال بها والإنجرار وراءها، كما فعل النبي الأكرم ﷺ، حيث حذَّر المسلمين من الإنفعال بمثل تلك الإثارات ووجَّه عقولهم نحو الأهداف الاستراتيجية والتنموية للدعوة الاسلامية.

بين النظرية والموقف الاجتماعي

قد يكون من السهولة بمكان على أي مفكر أو مصلح رسم حيثيات وهيكلية لأطروحة أو مشروع ما مكتمِل الأصول والمباديء لأُمَّة أو مجتمع كبير أو حتى لأسرة صغيرة، لكن الصعوبة تكمن في التحقيق والتطبيق في الواقع الخارجي، إذ ربما يكتشف المصلح لاحقًا أنه قادر فقط على تطبيق شيء بسيط كالثلث أو العشر من الصورة المرسومة، وذلك بسبب العوائق

(١) انظر مثلاً تفسير القرطبي، ج٤ ص١٠٠، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٣م.

والظروف الموضوعية التي طُبِّقتْ في ظلها هذه الصورة. وذلك لا يجري فقط في برامج المصلحين والمفكرين وشبههم فقط، بل هو جارٍ في سِيَر الأنبياء والمرسلين أيضًا.

فلاشك أن الأنبياء عليهم السلام جاءوا ببرامج وخطط متكاملة من حيث البناء النظري، لكن تحقق ونجاح هذه البرامج في الواقع الخارجي لم يكن معتمدًا على القائد الحكيم فقط، وإنما كان متوقفًا على الموقف الاجتماعي. لقد عرَّفنا القرآن الكريم كيف أن بعضًا من أعاظم الأنبياء عليهم السلام حملوا إلى أممهم مشاريع انقاذية كبرى، إلا أن الأمم لم تتفاعل معها أو عملت على إجهاضها، لذلك لم تكتمل الصورة الفعلية في الواقع الخارجي لهذه المشاريع، لا لنقص في القائد أو الفكرة النظرية، بل لعدم توفر شروط الموقف الاجتماعي. وإنما دمَّر اللَّه سبحانه الكثير من الأمم ماعدا قوم يونس عليه السلام بسبب مواقفها الاجتماعية السلبية تجاه البرامج التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام.

يقول عز وجل في هذا الشأن: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[1].

(١) يونس ٩٨-٩٩.

فلأن الموقف الاجتماعي لقوم نبي اللَّه يونس عليه السلام كان رشيدًا ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا**﴾، تحققت الأهداف العليا التي رسمها نبيهم في الواقع الخارجي على أكمل وجه ﴿**كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾، بينما بقية الأمم لم تسجِّل موقفًا لائقًا وإنما التزمت موقف العناد ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ**﴾[1]، مع أن قادتها كان بعضهم من أنبياء أولي العزم، لذلك كانت النتيجة مأساوية، ﴿**فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**﴾[2]، ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾[3].

ويسعنا في هذا السياق الترقّي لما هو أعظم، فليس الأمر متعلِّقًا بعامة المصلحين أو حتى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فحسب، بل يشمل مقام العظمة الإلهية، فقد جعل سبحانه وتعالى للمجتمع الإنساني تشريعات وتعاليم متكاملة في أدق تفاصيلها، ومع ذلك قد نجد في بعض الأزمنة أن الأمم التي تنتسب للكلام الإلهي من أكثر الأمم تخلّفًا ورجعِيَّةً، وما ذلك إلا لأن النجاح متوقفٌ بالضرورة على الموقف الاجتماعي، فالله سبحانه لم يَفرِض تعاليمَه الداعية للتدين والتحضّر والتقدّم

(١) المؤمنون ٤٤.
(٢) المؤمنون ٤٤.
(٣) الكهف ٥٩.

على عباده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وإنما جعل معادلة النجاح والفشل متوقِّفةً على مواقفهم الاجتماعية ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]، ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[2].

بناء على هذا فإننا حين نفكر في إنجاز ما يمكن أن يكون له أثر واقعي في إنجاح مثل هذه الأطروحة، يجب أن نضع في اعتبارنا أن مجرد كون الأطروحة شبه متكاملة في تصورنا من الناحية النظرية ليس نهاية المطاف إذ لا يلزم من ذلك بالضرورة نجاحها عند التطبيق العملي، وذلك لسببين:

١. قد لا تكون الصورة المرسومة نظريًّا صحيحةً بشكل تام، فإنما تتضح دقائق الصُّوَر النظرية ومستوى ملاءمتها للواقع من عدمه عند التطبيق العملي، كما هو مألوف تمامًا في مجال العلوم والمعارف، فالفرضيات بل والنظريات التي تُقَعَّد علميًا على المستوى النظري غالبًا ما تظهر ثغراتها وعدم تماميتها أثناء التطبيق العلمي.

(١) الرعد ١١.
(٢) البقرة ٢٥٣.

٢. احتمالية وجود ظروف موضوعية معاكسة قد تساهم في خلخلة الأطروحة وعدم نجاحها. بمعنى قد تكون الأطروحة باللحاظ النظري متكاملة، وقابلة للتطبيق العملي بشكل سلسل فيما إذا كانت الظروف طبيعية ومؤاتية، لكن قد تعترضها بعض الظروف الموضوعية الطارئة فتحد من مستوى نجاحها.

فقبل التحدث عن الخطوات العملية يجب أن نضع هذا الأمر بالاضافة للمقدمتين السابقتين نصب أعيننا حتى لا نتفاجأ بالواقع، ونكون مرنين في مسيرة التطبيق على أرض الواقع. ولابد أن ندرك جيدًا بأن الأطروحات الأخرى الشبيهة بهذه الأطروحة بُذِلَتْ من أجلها جهود وصُرِفَتْ أموال واستُهلِكَتْ أوقات في سبيل إنجاحها، ومع ذلك كانت العوامل والظروف الخارجية والمواقف الاجتماعية سببًا في تعثّرها.

وبالطبع فإن هذه الملاحظات لا تزرع عندنا الاحباط والتشاؤم، بل تزيدنا تمسّكًا بهذا الأفق الايجابي وإصرارًا على الاستدامة في توليد الأطروحات الأكثر ملاءمةً للواقع والأقرب للتحقق والنجاح. فلو كان هناك مجتمع تكاد تنعدم فيه فرص النجاح لمثل مشروع الائتلاف لكان هو المجتمع العربي قبل وفي زمن البعثة النبوية الشريفة ﴿**إِذْ كُنتُمْ**

﴿أَعْدَاءً﴾[١]، ومع ذلك استطاع النبي ﷺ بحكمته وأخلاقه العظيمةأن يغيّر الصورة العامة للمجتمع لصالح الألفة والتوافق ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢].

الخطوات العملية

كلما كانت الخطواتُ وتنفيذُها أكثرَ دقةً كلما كانت أتقن في الإنجاز، وهكذا كلما كانت أكثر استراتيجيةً كلما كانت الإنجازات أكبر وأعمق، بعكس ما لو كانت جزئيةً ملامسةً للسطح مشوَّشةً فإن تأثيرها سيكون سطحيًّا وغير متقن، ولذلك ينبغي التدقيق خصوصًا في مراحل التنفيذ كي نضمن شيئًا ذا قيمة على صعيد النتائج والإنجازات.

الخطوة الأولى: صناعة قادة يحظون بكاريزما وجاذبية خاصة على المستوى الاجتماعي.

ربما تتولَّد الكثير من الأفكار الايجابية في الساحة الفكرية والاجتماعية، لكنها لا تتوفر على قادة، أو يكون قادتها ممن تفقدهم عناصر الجاذبية الاجتماعية، إما لسوء سريرتهم أو لقلة نشاطهم أو لانطوائهم أو لمواقفهم الخاطئة وما أشبه، فإن

(١) آل عمران ١٠٣.
(٢) آل عمران ١٠٣.

الرفض الاجتماعي لهم أو عدم التفاعل معهم وعدم المبالاة بهم يجعل احتمالات الفشل للأفكار أقوى من احتمالات النجاح. بينما الأفكار التي يبشِّر بها قادة لهم ألق اجتماعي ومحبة في نفوس الناس تأخذ عادة طريقها نحو النجاح.

ولذلك ليس من المناسب الاستعانة بأيٍّ في عرض الأفكار والأطروحات النوعية على المستوى الاجتماعي، بل لابد من اختيار أو إعداد شخصيات لهم مميزات خاصة، ولعله في هذا السياق قالت الآية المباركة ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾[1]، إذ ليس كل أحد قابل لأن يمثّل فكر وتعاليم الدعوة الاسلامية، وهو شأن سائر الأفكار، فلو مثَّلها من لا يحظى بقبول اجتماعي فستكون فرص نجاحها ضعيفة، خصوصًا إذا كانت الأفكار غريبة على المجتمع في باديء الأمر. فإذا كانت الأفكار والأطروحات غريبة على المجتمع وغير مألوفة، أو كانت خارجة على السياق الذي اعتاده واقتنع به زمنًا طويلًا، فإنه سيحتاج أيضًا إلى مدة زمنية ليست بالقليلة كي يألف غيرها، وهذا لا يتحقق فجائيًّا وإنما بالتدريج، وبشرط أن يكون حامل الفكرة وممثِّلُها محبوبًا ومقبولًا لديه، بسبب كونه معترفًا له بالقوة العلمية مثلًا أو لأن سيرته مستقيمة. ولهذا

(١) آل عمران ١٠٤.

فإن قَتْل الشخصية اجتماعيًا أقصرُ الطرق للقضاء على الأفكار وتهميشها.

وأجلى مثال على هذا الأمر اختيار النبي الأكرم ﷺ كممثِّل عن اللَّه عز وجل على المستوى الإنساني، فقبل كل شيء كان عليه السلام شخصية تتمتع بكاريزما هائلة عند الناس حتى عُرِف عندهم بالأمين[١]، لدرجة «شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد ﷺ فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانةً حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر»[٢]، وبالتالي فإن ما وصفته به الآيات لم يكن مستنكرًا عند الناس حيث قال سبحانه ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٣]، وكانت هذه الكاريزما من أهم مقومات الدعوة، ولهذا كان المناوؤن لها يسعون جاهدين لقتل الصورة المثالية للنبي ﷺ في نظر الناس ليتسنى لهم القضاء على دينه، وكانت كاريزماه عليه السلام هي التي حسمت الأمر لصالحه في نهاية

(١) تهذيب سيرة بن هشام، عبد السلام هارون، ص٤١، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة السابعة عشر ١٩٨٨م.

(٢) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري بك، ص١٥، مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

(٣) القلم ٤.

الأمر، فصار الناس يدخلون في دين اللَّه عز وجل عشائرَ وقبائلَ بأكملها ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[١].

وهكذا جاء اختيار نبي اللَّه موسى عليه السلام، ففي الرواية عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أن اللَّه عز وجل أوحى إلى موسى «يا موسى بن عمران أتدري لم اصطفيتك لوحيي وكلامي دون خلقي؟ فقال: لا علم لي يا رب، فقال: يا موسى إني اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشد تواضعًا لي منك، فمن ثم خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي»[٢]. ومثله اختيار طالوت حيث قال سبحانه على لسان النبي اشموئيل نبي بني إسرائيل في ذلك اليوم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[٣].

فجميع هذه الاختيارات وأشباهها تأتي في هذا السياق، حيث إن من يمثِّل الأفكار ينبغي أن يكون حاملًا لصفات وعناصر خاصة تجعله مؤهَّلًا للقبول الاجتماعي، حتى تكون مسيرة الأفكار في الحياة الاجتماعية مسيرة تصاعدية ناجحة.

---

(١) النصر ٢.

(٢) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج١ ص٧٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

(٣) البقرة ٢٤٧.

الخطوة الثانية: بث أكبر قدر ممكن من الثقافة الداعمة للأطروحة.

كي يتجاوب المجتمع مع الأطروحة يلزم أن تتحوّل عنده إلى ثقافة مدْرَكَة يتداولها في حياته اليومية بشكل سلسل وانسيابي. وإلا إذا عاش معها المجتمع غريبًا لغربتها عنه وعن ثقافته وإدراكاته اليومية فلن تتمدد اجتماعيًّا وإنما ستبقى مجرد أفكار معزولة تبلى بمرور الزمن.

كل فكرة كي تكون قابلة للنجاح لابد أن تكون متناسبة مع ثقافة المجتمع وتتحرك على ضوء أرضيته، أما إذا كانت غير متجانسة مع تلك الأرضية فلن تنبت في تربتها، وآنئذ لابد من تهيئة التربة لتكون صالحة لتقبّل تلك الفكرة. فلو أخذنا على سبيل المثال مجتمعًا ثقافته قائمة على أساس الفردية بينما نحن نريد إنجاح مشاريع ذات طابع جمعي في وسطه، فإن مسيرة هذه المشاريع ستتصادم مع ثقافة هذا المجتمع وستكون حركتها غير سويَّة، لأن الحالة الفردية ستبقى هي الحاكمة باستمرار.

وكهذا في مثل أطروحتنا (**أمة تأتلف**)، فثقافة المجتمع إذا كانت قائمة على أسس المذهبية والطائفية أو القبلية أو العرقية، فإن الثقافة التي تبثها هذه الأطروحة ستتصادم مع هذه الثقافات، وبالتالي بدل أن يصبح العمل على تطبيق الأطروحة تنمويًّا، قد

يتحول إلى مادة احتراب ويشغل المجتمع بصراعات جانبية تسير على النقيض مع الأطروحة.

لهذا لابد في البداية من العمل على تهيئة المجتمع ثقافيًّا للأطروحة المتبنّاة، من خلال ضخ أكبر قدر ممكن من الثقافة الداعمة لها.

ولنأخذ مثالًا على ذلك، فعندما بدأ النبي الأكرم ﷺ دعوته كانت الأرضية الثقافية لمجتمعه قائمة على أسس قبلية، فمكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف كانت خاضعة لحكم القبائل كبني هاشم وتميم وكنانة وخزاعة والأوس والخزرج وثقيف وما إلى ذلك، ولا يمكن لمثل هذه المجتمع القبلي المفكَّك أن ينهض بمشروع أمة واحدة، لذلك اقتضى الأمر تغيير هذه الثقافة القبلية حتى يُكتَب لهذا المشروع النجاح. فذوَّب النبي ﷺ عنوان الأوس والخزرج وأعطاه عنوانًا جمعيًّا وهو الأنصار، وأزاح عنوان القبائل المكية وسماهم المهاجرين، وأجرى برنامج المؤاخاة، وصار عليه السلام يحرس هذه الروح الجديدة كي تتكامل وتؤتي أُكُلَها، ولذلك كلما ظهر رمز يشير إلى الثقافة الجاهلية السابقة وقف في وجهه بقوة مذكِّرًا بالثقافة الجديدة، كما تم الاستشهاد له عند الحديث عن المقدمة الثانية السابقة الذكر.

بالتالي فلأن المجتمع الاسلامي في العقدين الأخيرين انسحب نحو الثقافة المضادة، فصعد الوتر الطائفي وتنامى الحس القبلي والعنصري، علينا كي نُنْجِح أطروحة جمعية وحدوية كـ(**أمة تأتلف**) أن نطوِّع المجتمع ثقافيًّا من خلال بث أكبر قدر ممكن من الثقافة الشعبوية والعلمية المتخصِّصة الداعمة لفكرة هذه الأطروحة.

هذه أهم الخطوات العملية التي يتطلبها التحريك السلس لهذه الأطروحة اجتماعيًّا في هذه الفترة بالخصوص، ويمكن أن تتفرّع عنها بعض الخطوات التفصيلية حاليًّا أو في المستقبل، والله الهادي إلى سبيل الحق.

المحتويات

مقدمة ٧

مدخل للبحث ٩

لماذا نؤكد على مفهوم الائتلاف؟ ٩

الفصل الأول: تقرير مفهوم الائتلاف ١٣

بين الائتلاف والتعدد ١٨

الفصل الثاني: الأسباب الموضوعية ٢٣

الفصل الثالث: الخطوات العملية ٣٣

بين النظرية والموقف الاجتماعي ٤١

الخطوات العملية ٤٦

المحتويات ٥٣